

التفكير الإلحادي ودوافعه في العالم العربي المعاصر: دراسة نقدية

الشيخ د. جاد الله توفيق أحمد

دكتوراه في الفقه والأصول، وباحث في الفكر المعاصر

ملخص

تمثل البيئات الملوثة وغير المستقرة مضمراً خصباً للأوبئة والأمراض، وهذا لا يقتصر على ميدان الطبيعة فقط، بل يتعداه إلى الأوساط الفكرية والاجتماعية والثقافية، فكل محيط بشري يصيبه الاضطراب والتكدر لعروض الأزمات والنزاعات يصبح عرضة للآفات والأدواء، وظاهرة انتشار الإلحاد في العالم العربي المعاصر تقع ضمن هذا السياق، فهي مرض تسلل إلى واقعنا نتيجة الأزمات التي نعاني منها على مستويات متعددة. إن انتشار الإلحاد في مجتمعاتنا كان نتيجة الضعف الذي حاق بجهاز المناعة عندها في الآونة الأخيرة، والإلحاد على مدى العصور كان خياراً شخصياً، لكنه لم يكن تياراً فكرياً له ملامح واضحة ومؤسسة تبليغية لها دعائها وأهدافها.

الكلمات المفتاحية:

الإلحاد، الفكر العربي المعاصر، إسماعيل أدهم، عبد الله القصيمي، محمد المزوغبي.

المقدمة:

تفشّت في الآونة الأخيرة ظاهرة الإلحاد في المجتمعات العربيّة، وتأثر بها كثير من الشباب العربيّ بدواعٍ مختلفة، حتى أصبحت سمة من سمات الواقع العربيّ المعاصر، وغدا من الضروري أن يتصدّى لها العلماء، وأن يظهرُوا الاهتمام اللازم بها.

ولسائل أن يتساءل هنا: لماذا ينبغي التصدّي لظاهرة الإلحاد؟ أليس قد كفل الإسلام، وهو آخر الأديان السماويّة، حرية الفكر والاختيار، فلم يُحظَرُ الإلحاد في العالم العربيّ المعاصر؟ الحقيقة أن الإلحاد بما هو فكر واعتقاد يندرج تحت حرية الفكر والاختيار، ولا يمكن حظره أو منعه حتى يكون مطلباً لأحد، وأما ضرورة التصدّي له من قبل العلماء، فذلك يرجع إلى أنّه اعتقاد باطل ونسق فكريّ خاطئ، وكلُّ ما كانت هذه حاله ينبغي لمن علم بطلانه وخطؤه أن يظهر ذلك البطلان والخطأ، ويُعرّف الآخرين ممّن جهلوا الأمر وينبّههم إليه من خلال إبراز مكامن الضعف والخلل في هذا الفكر والاعتقاد، وهذا هو واجب علماء الإسلام فيما يتعلّق بالفكر الإلحاديّ.

وأما الإلحاد بما هو ظاهرة تنتشر في المجتمعات العربيّة بفعل فاعل، فإنّه يمثّل سلوكاً عدائياً ومحاولة تخريبية للأسس الثابتة التي تقوم بها هويّة هذه المجتمعات، وبيتني عليها وجودها. وضرورة التصدّي له بما هو كذلك أمر بديهيّ تقتضيه في المقام الأوّل الطبيعة البشريّة القاضية بضرورة ردّ اعتداء المعتدين، فضلاً عن الأسباب الاجتماعيّة والإنسانيّة وغيرها.

وفي هذه الدراسة لا نريد أن نتصدّى للإلحاد بما هو فكر واعتقاد، فإن ذلك يحتاج إلى مطوّلات تطول على قدر استيعابها للمناقشات والأدلة والبراهين، وإنما نريد أن نتصدّى للإلحاد بما هو ظاهرة؛ وذلك من خلال عرض للسمات المشتركة عند الملحدين في تفكيرهم الإلحاديّ والدوافع التي دعتهم إلى المضي في هذا الطريق الخاطئ، من خلال سبر مؤلفات ثلاث شخصيّات إلحادية بارزة في العالم العربيّ المعاصر. وقد اعتمدنا المنهج الاستقرائيّ التحليليّ

للكشف عن السمات والدوافع من خلال استقراء الكتب والمؤلفات الإلحادية وتحليلها، واستقراء الواقع العربي المعاصر وتحليله.

■ أولاً: سمات التفكير الإلحادي.

قد يقول البعض: إن وصفنا لظاهرة الإلحاد في العالم العربي بالمرض حكم غير مبرر، وجنوح عن الموضوعية لمصلحة المواقف السابقة التي تمليها علينا -بزعمه- الأفكار الضيقة والمتمتة التي تقوّلنا بها ضمن الإطار الديني، ولو أننا نظرنا إلى الإلحاد خارج نطاق تلك المواقف السابقة لوجدناه منطقاً سليماً يقتضيه العقل، ولو وجدنا أن رفضه إنما كان لأننا لا نملك حرية الفكر، ولأننا منغلَقون على أنفسنا في سياقات فكرية لا يمكننا الانفلات منها.

إن هذا الكلام في الحقيقة هو السلاح الذي يجابه به الملحَدون من يقف في وجه دعوتهم ونشر أفكارهم المغلوطة، وهذا الكلام في الواقع ينتمي إلى مغالطة تسميم البئر بحيث يُراد لسامع هذه الكلمات أو قارئها أن يشعر بأن التفكير الديني يمنع من حرية الفكر والموضوعية والعلمية، وأن الإلحاد هو نتاج حرية الفكر والموضوعية والعلمية؛ ولذلك لا يقبله المنطق الديني، فيمتنع بذلك عن الإصغاء إلى الفكر الديني.

والحقيقة أن هذا الكلام لا يعدو كونه ادعاءً كاذباً يكذبه الدليل والواقع، فإن المطلع على كلا المعطيين الديني والإلحادي يرى على نحو واضح رحابة الصدر في المنطق الديني بعيداً عن الممارسات الخاطئة، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: 24)، ويرى أيضاً تهافت الفكر الإلحادي، والهدف التخريبي الذي يسعى إليه التفكير الإلحادي فيما يتعلق بالدين، ومن هنا ساغ لعلماء الدين توصيف الإلحاد والعمل على نشره بالمرض والوباء، ولهذا أيضاً تجد أن أغلب ما سطرته يراعات العلماء في قضية الإلحاد جاء تحت عناوين سبل العلاج أو الوقاية منه وما شابه ذلك.

ولا شك في أن توجه علماء الدين لاستعراض سبل الوقاية والعلاج يتناسب ويتناظر مع النزعة الهجومية للتفكير الإلحادي بعد أن غدا تياراً وظاهرة، ويعكس الرغبة الواضحة لظاهرة الإلحاد في تدمير المنظومة الدينية في عالمنا المعاصر.

تجدد الإشارة في المقام إلى أن الوقاية من الإلحاد لا ينبغي أن تكون دائماً باتخاذ وضعيّة الدفاع

فقط تجاه تشكيكات الملحدين وإشكالاتهم، بل لا بدّ من إظهار ضعف الشبهات والهجمات الإلحاديةّ وتهافتها، وهيتستتر بستار العلم والحضارة للتعمية على ضعفها وبطلانها. بناء على ذلك، يصبح من الضروري إبراز السّمات التي يتصف بها التفكير الإلحاديّ، إذ يندرج ذلك في سياق الوقاية منه بإظهار ضعفه وخطئه. وبما أنّ النظر في هذه الدراسة متوجه إلى العالم العربيّ، فإنّ انتزاع هذه السّمات سيكون من خلال تتبع كلمات الشخصيات الثلاث الوارد ذكرهم في عنوان الدراسة ضمن كتبهم ومؤلفاتهم المختلفة، وها هي أبرز سمات التفكير الإلحاديّ انطلاقةً من الواقع العربيّ المعاصر:

1. اعتماد الاستحسان طريقاً إلى الاعتقاد.

المقصود بالاستحسان هنا هو الاستذواق، أي الاستحسان طبقاً لمعناه اللغوي لا الاصطلاح الشرعيّ، فإنّ ذلك له محلّه من البحث عند علماء الدّين، والاستحسان لغة هو عدّ الشيء حسناً (الجوهري، الصحاح، 6: 377؛ ابن منظور، لسان العرب، 13: 117)، وهذا يقتضي أنّ الشيء قد يُعدّ حسناً سواء أكان هناك دليل على حسنه أم لم يكن، وسواء أكان حسناً واقعاً أم لم يكن كذلك، فقد يستحسن الإنسان شيئاً ما؛ لأنّه يلتئم مع هواه ورغبته، أو لأنّه ينسجم مع تكوينه الاجتماعيّ، أو لأنّه يناسب ذوقه وطبيعته الخاصّة، إلى ما هنالك من أسباب ذاتيّة، والاستحسان -كما أوضحناه- لا يصلح أن يُعتمد في المعرفة وتكوين الاعتقادات؛ لأنّه أمر غير ثابت، وميزان غير مستقرّ يختلف من شخص إلى آخر.

من السّمات البارزة في التفكير الإلحاديّ اعتماد الاستحسان والذوق طريقاً إلى المعرفة والاعتقاد وتكوين القناعات، فما لم يرق للملحد رفضه وعدّه باطلاً، وما واءم ذوقه وتوجهاته عدّه حسناً وصحيحاً. وتكفي نظرة سريعة إلى كتب القوم حتى تجدها ناضحة بالاعتقادات والمواقف المبنية على الاستحسان والذوق الشخصيّ، انظر إلى محمد المزوغي يقول: «ليس هناك من عاقل اطلع على الأساطير الصيبانية التي تروى في الكتب المقدسة من دون أن يصيبه الغثيان والقرف والاشمئزاز» (المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، -33 34)، فإنّه قد بنى حكمه -في جزء كبير منه- على قضايا حقيقية وواقعية، لكنه لم يستغها فسمّاها أساطير صيبانية. إنّ عدم تقبّل المزوغي لهذه القضايا لم يكن لقيام دليل على بطلانها، بل لمجرد عدم استحسانها،

حيث إنّه قد أشار إلى بعض الوقائع التي ذكرها القرآن الكريم على أنّها أمور لا يمكن تصديقها، ولم يبرز وجه عدم إمكان ذلك، ويظهر جلياً أنه لم يستحسن ذلك فعده غير قابل للتصديق، ثم خلط بين ما جاء في الكتب التي نالها الخلط والتزوير والتحريف، وبين ما جاء في القرآن الكريم المصون عن التحريف وجعلهما في رتبة واحدة بلا أدنى سبب سوى أنه استحسنه.

وها هو ذا إسماعيل أدهم على الدرب نفسه إذ يسرد التاريخ - في كتابه من مصادر التاريخ الإسلامي - بطريقة تناسب أفكاره ويربط الأحداث مع بعضها كيفما اتفق له، بل ويتكلم على النيّات والأهداف والرغبات بلا نقل أو توثيق وإنّما اعتماداً على حاقّ ظنّه (انظر: أدهم، إسماعيل، من مصادر التاريخ الإسلامي، -35 34-36). وفي رسالته الشهيرة (لماذا أنا ملحدٌ) يقول: «الواقع الذي ألمسه أنّ فكرة الله فكرة أوليّة، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعة منذ ألفي عام، من هنا يمكننا بكلّ اطمئنان أن نقول: إنّ مقام فكرة الله الفلسفيّة أو مكانها في عالم الفكر الإنساني لا يرجع لما فيها (من) عناصر القوة الإقناعيّة الفلسفيّة وإنّما يعود لحالة يسمّيها علماء النفس التبرير» (أدهم، لماذا أنا ملحدٌ، 7).

كيف يمكن أن يكون من واقعه الملموس أنّ فكرة الله أصبحت من مستلزمات الجماعة منذ ألفي عام؟! وما هو الدليل الذي اعتمد عليه حتى جاز له أن يقول، وبكلّ اطمئنان، إنّ فكرة الله تعود إلى حالة التبرير كما يسميها علماء النفس؟ هل يخرج شيء من هذا الكلام عن الاستحسان المحض؟!

2. القراءة الناقصة للأديان وكثرة الدعاوي الباطلة.

من السّمات البارزة عند الملحدّين قراءة الأديان بشكل ناقص، حتى ليتبادر إلى الذهن عند الاطلاع على كلمات أغلبهم - في خصوص الأديان - أن معرفتهم الدينيّة ليست إلا أفكاراً مبعثرة التقطت من هنا ومن هناك، إضافة إلى ذلك فإنّهم يطلقون دعاوي كثيرة دون أن يقدموا مستنداً واضحاً قد ارتكزوا عليه، وبعض هذه الدعاوي لا يكون مستندها سوى أنّها انقذت في ذهن قائلها فاستحسنها ليس غير، فهذا محمد المزوغي يقول: «المسلمون ... ملزمون هم أيضاً بالإيمان بكلّ الترسّانة الخرافيّة للعهد القديم مضافاً إليها أساطير التلمود والأنجيل الغنوصية المنحولة» (المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 37).

إنَّ بطلان هذه الدعوى مما لا يخفى على أحد، فإنَّ الأدلة القطعيَّة من القرآن والأحاديث الصحيحة قد قامت عند المسلمين جميعاً على تحريف الكتب السماويَّة، فكيف يكون المسلمون ملزمين بالإيمان بها؟! إنَّ تحريف الكتب السماويَّة السابقة على القرآن الكريم يمنع من الاعتماد عليها في شيء منها، فكيف إذا كان المنقول فيها ممَّا يخالف العقل أو النقل الصحيح؟ ومع ذلك تجد هذه الدعوى الباطلة طريقها إلى الصدور عند محمد المزوغي.

دعوى أخرى يطلقها إسماعيل أدهم حين يقول: «ونحن نعلم مع رجال الأديان والعقائد أنَّ أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائيَّة، وإنمَّا شقَّت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعيَّة» (أدهم، لماذا أنا ملحدٌ، 8).

وحبذا لو أنَّه ذكر لنا -كمثال- عالماً مسلماً واحداً صرَّح بما قاله، عندها كنَّا سنقول: إنَّه بناء على هذا المثال أخطأ فعمم، فخطؤه التعميم ليس أكثر، لكن من أين له أن يذكر مثلاً واحداً إن كان غير موجود؟ بل كيف يمكن أن يتحقَّق له ذلك، وهو قد خلط بين أمرين، كغيره من الملحدين، فلم يميِّزوا بينهما، الأوَّل: منشأ ظهور الدِّين حقيقة واقعيَّة، الثاني: منشأ الميل والتوجُّه إلى الدِّين عند البشر (راجع: خسروپناه، الكلام الإسلاميِّ المعاصر، 1: 419 وما بعدها).

ويخطو عبد الله القصيمي خطوة طليعيَّة في هذا الميدان عندما يطلق هذه الدعوى الباطلة، فيقول: «إنَّ جماعيَّة الإنسان هي التي أقنعتة وتطلُّ تقنعه دائماً بألهته وأنبيائه وزعمائه وبأديانه ومذاهبه وتاريخه وتقاليده وتعاليمه، وليس الذي أقنعه ويقنعه هو ما رأى أو علم أو جرَّب في وجوه أو في عقول أو في أخلاق وضمائر ومواهب أربابه وأنبيائه وزعمائه...» (القصيمي، الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، 313).

وبناء على هذه الدعوى فإنَّ الإنسان سجين جماعته لا يمكنه التفكير أو اتباع العقل، بل هو ينتظم ضمن الجماعة كيفما انتظمت، وهذا ما يصرِّح به القصيمي بعد ذلك، فيقول: «إنَّ الإنسان ليس كائنًا يفكِّر ويقنعه ثم يقنعه بأنَّه قد اقتنع ولكنه كائن يتلاءم» (القصيمي، الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، 314).

3. الانطلاق من تجارب ومعاناة شخصيَّة في تنظيم النَّسق التفكيريِّ وتعميمه.
كلُّ من يطلع على مؤلفات وتصريحات الملحدين يمكنه أن يتلمس من دون عناء تعويلهم على

قناعات منبثقة من ظروف شخصية خاصة في تشييد أفكارهم أو لأقل في طريقة بناء الأفكار، فتجارب الملحد الاجتماعية والثقافية ومعاناته النفسية والعاطفية تصبح أساساً معرفياً له، ومن ثم يفرضها على غيره من خلال تعميمها على الآخرين تعسفاً، لاحظ ما يقوله عبد الله القصيمي عن الإنسان على نحو عام: «يجيء الإنسان ليظل يواجه ويعايش ويمارس كوناً رهيباً من التصادم والتناقض والمخالفة والمقاومة والرفض، إنه يجيء ليجد كل شيء يصادم ويناقض ويخالف كل شيء فيه» (القصيمي، الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، 76). إنه يتحدث هنا عن واقع لا نعرفه ولم نسمع به، ولعله يتحدث عن واقعه الخاص أو على الأقل الواقع كما يريد أن يراه هو. في موضع آخر يقول: «إنه ليجد دائماً بيننا وبين جميع الأشياء والكائنات خلاف وغضب وعداء وعجز عن التفاهم والتوافق والثقة والحب والاحترام» (القصيمي، الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، 78). أليس يحيلنا هذا الكلام إلى لوحة سريالية لا تنتمي إلى عالمتنا؟ أليس واضحاً أن ما يتحدث عنه هو الواقع كما يريد لنا أن نراه، لا كما هو، لكنه مع ذلك ينطلق من هذا الواقع الخاص به ليعممه، ويجعل ما يراه من خلال تجربته الخاصة وظروفه الخاصة حقيقة ثابتة تعتمد في بنائه الفكري.

إسماعيل أدهم لا يخفي هذا الأمر، بل يصرّح به في رسالته (لماذا أنا ملحدٌ) حين يقول: «والواقع أنني حفظت القرآن وجودته وأنا ابن العاشرة غير أنني خرجت سaxonاً على القرآن لأنه كلفني جهداً كبيراً كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحبُّ إلى نفسي، وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه» (أدهم، إسماعيل، لماذا أنا ملحدٌ، الصفحة 5)، وفي موضع آخر حين يقول: «فقد كانت شقيقتي... قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحويه التوراة والإنجيل ليس صحيحاً وكانتنا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب وكان لهذا أثر في نفسي» (أدهم، لماذا أنا ملحدٌ، 5). إذن، هناك أثر نفسي قديم يعلمه إسماعيل أدهم في نفسه ويقرُّ به قد قاده إلى هذا الفكر وإلى هذه الطريقة في التفكير.

4. التسرع في المواقف والوصول إلى النتائج.

إنَّ القارئ للفكر الإلحادي يجد بوضوح أنَّ تعامل الملحدين مع القضايا المهمّضة والمصيرية بعيد كلَّ البعد عن الاحتياط والحذر الذي تقتضيه جسامة تلك القضايا وخطورتها، فتراهم

يطرحون قضية العقاب والثواب الأبدي مثلاً كما يطرحون أي فكرة بسيطة لا يتعدى أثرها المعرفة الآنية بها، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يتخذون مواقف مصيرية بناء على هذه الطروحات، بل إن الإلحاد نفسه قد يكون نتيجة فكرة بسيطة لم يتأمل فيها كما ينبغي، كما حدث مع برتراند راسل وهو المعدود من الفطاحل، فقد ارتد عن الإيمان وألحد نتيجة اعتقاده بعمومية قانون العلية لكل موجود⁽¹⁾، كما يصرح بذلك فيقول: «الدليل الأساسي لمعرفة الله، تعالى، هو برهان علة العلة؛ ولهذا السبب كنت في شبابي مؤمناً بالله، ولكن بعد ذلك ارتددت عن هذه العقيدة لأنني فكرت لو كان لكل شيء علة إذن، الله يحتاج إلى علة أيضاً» (الشيرازي، الاتصال بالأرواح بين الحقيقة والخيال، 37).

إن التسرع في اتخاذ المواقف والتحقق من النتائج قبل النظر الدقيق الذي ينبغي في القضايا الخطيرة والمؤثرة سمة عامة تتعرش بها في كل طرح إلحادي وعند كل فكرة إلا في القليل النادر، فانظر معي إلى محمد المزوغي وهو يعترض على قوله تعالى في الكتاب المجيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: 56). فيفهم الآية المباركة كما يروق له، ويظن أن صلاة الله، سبحانه وتعالى، على النبي، صلى الله عليه وآله، الواردة في الآية الكريمة هي تلك الأفعال والأقوال المخصوصة التي يقوم بها المسلمون، دون أن يكلف نفسه عناء الرجوع إلى أي كتاب تفسيري حتى يعلم المقصود، ليقول: «ألم يأت في القرآن أن الله وملائكته يصلون على النبي؟ يعني أن الخالق الجليل الذي أخرج هذا الكون البديع من العدم بما فيه من مجرات ونجوم وكواكب ونيازك وشهب ينزل لكي يصلي على إنسان فان» (المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 102).

وانظر إليه مرة أخرى يستدل على عدم الفائدة من بعثة الأنبياء ببيان عجيب أسوقه إليك مختصراً: «إن بعثة الأنبياء لا تستقيم من أي وجه قلبناها... إنها لا تصلح لتسيير أفعال الإنسان وقيادته إلى الصلاح لأن العقل كاف بالاضطلاع بهذه المهمة فالأفعال على ثلاثة أقسام: قسم قضى العقل فيه بالحسن فكان فعله صواباً وحكم العقل بكونه واجب القبول، وقسم ثان قضى

1 - إن قانون العلية يعم كل معلول لا كل موجود.

العقل فيه بالقبح والمنع فكان حكمه أيضاً واجب القبول، وقسم ثالث محايد توقف العقل فيه فلم يحكم فيه لا بحسن ولا بقبح وإزاء هذه الأقسام الثلاث فإنَّ حكم العقل كاف بمفرده لمعرفة ما يجب وما يجوز وما يحرم ومن ثمَّ فليس هناك في بعثة الأنبياء من فائدة» (المزوغى، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 108).

من هذا الدليل السقيم يصل محمد المزوغى إلى اتِّخاذ موقف وهو عدم الحاجة والفائدة إلى الأنبياء.

طبعاً، ليس المقام مقام مناقشة وأخذ ورد، لكن في إشارة سريعة إلى طبيعة النهج الذي يسلكه الملحدون في الوصول إلى نتائجهم أطرح بعض الاستفهامات: كيف يقودنا العقل إلى الصلاح في القسم الثالث عندما وقف محايداً؟ وما هي نسبة هذا القسم الثالث قياساً إلى ما نحتاج إليه؟ وهل الحاجات الإنسانية الأشدَّ إلحاحاً ضمن هذا القسم الثالث؟ هل يعد استدلالاً أن أقول إنَّ حكم العقل يغني عن الدين لأن الأفعال ثلاثة أقسام وفي كل قسم يجب اتباع العقل سواء أكان له حكم أم لا؟ أليس هذا نوعاً من الكوميديا في غير محلها؟

5. عدم الدقة والعمق في المطالب العلميَّة.

ذكرنا أنَّ من سمات الفكر الإلحاديِّ التسرُّع في اتِّخاذ المواقف والوصول إلى نتائج، وهذه الحقيقة مرجعها إلى طبيعة تعامل الملحدين مع المطالب العلميَّة، إذ يغلب على هذا التعامل السطحيَّة وعدم التعمق والدقة.

إنَّ ما نقوله ليس ادِّعاء صرفاً لا شاهد له، ولو أردنا جمع شواهد على ذلك لأعدقنا منها ما يضيق معه صبر القارئ، لكن المقام لا يسمح بذلك، وإنما لا بأس بذكر بيِّنة يتمُّ معها إثبات الادِّعاء. الشاهد الأوَّل: يستدلُّ محمد المزوغى على بطلان العبادات الشرعيَّة التي أتى بها الأنبياء، عليهم السلام، بالبيان الآتي: «والثاني: أنَّ المنافع الحاصلة من تلك العبادات إما أن تحصل في الدنيا أو في الآخرة. الأوَّل: باطل لأنها في الدنيا هي محض التعب والكلفة والمشقة، وأما في الآخرة فبعيد أيضاً؛ لأن الله قادر على أن يدخل العباد الجنة ويخلصهم من نار جهنم دون المرور بتلك الوسائط» (المزوغى، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 104).

أقول: أمّا الحكم ببطلان الأوّل في هذا الاستدلال فهو حكم تعسّفي من المزوغي ناجم عن جهله بمنافع العبادات على المستوى المعنوي في العلاقة مع الله، سبحانه وتعالى، وفي اكتساب المعارف المعنويّة، ولعل ذلك كان منه لأنّ فهمه الخاطيء للمنفعة حصرها في الجانب المادّي؛ فعندما وجد أنّ إقامة الصلاة وأداء الصوم وغيرهما من العبادات لا يدرّ مالاً، ولا يتحصّل منه على معرفة مادّيّة حكم بأنّ هذه العبادات هي محض التعب والكلفة والمشقة.

وأما الحكم ببعد تحصيل المنافع في الآخرة لأنّ الله قادر على أن يقدم تلك المنافع دون أن يلتزموا بتلك العبادات، فهو مبتنى على مغالطة واضحة؛ لأنّ الله، سبحانه وتعالى، قادر على كلّ شيء، لكن ليس معنى أنّ الله قادر على كل شيء أنه يفعل كل شيء، وإنّما يفعل الله ما هو مقتضى صفاته من حكمة ولطف ورحمة وغيرها. إذن، تحصيل المنافع في الآخرة واقع لأنّ حكمة الله اقتضت ذلك، وإن كان يقدر على غير ذلك.

الشاهد الثاني: يستدل إسماعيل أدهم على أن هذا العالم الذي نعيش فيه لا صانع له، وإنّما وجد مصادفة بمقتضى قانون المصادفة الشامل حيث يقول: «ومثل العالم في ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحركة في الاصطدام فتجتمع وتنظم ثم تتباعد وتنحل هكذا في دورة لا نهائية فلا شك أنه في دورة من هذه الدورات اللانهائية لا بد أن يخرج هذا المقال الذي تلوته الآن» (أدهم، لماذا أنا ملحد، 10).

إنّ ضعف هذا الاستدلال لا يستتر، فبيان هسّ وإه على عكس ما يعتقد به صاحبه، والمقام لا يتسع لبيان تمام ضعفه وهزاله، لكن اللبيب من الإشارة يفهم، ودونك الإشارة:

هلا أخبرنا صاحب الدليل من أين جاءت المطبعة قبل أن تطبع المقال مصادفة في دورة من دوراتها اللانهائية؟

أيضاً في الفرض المذكور طالما أنّ مخرجات المطبعة خاضعة لمبدأ الاحتمال، فلا معنى لقوله «لا بدّ أن يخرج هذا المقال الذي تلوته»؛ لأنّ هذه اللابُدّيّة تقتضي وجوب ولزوم وجود المقال المذكور، وهذا باطل جزماً؛ لأنه يمكن ببساطة أن نقول: إنّ احتمال أن يتكرّر الوجه الأوّل الذي صدر عن المطبعة المذكورة إلى ما لا نهاية مساو لاحتمال صدور المقال المذكور، وكل احتمال يلغي الآخر، ومع تساويهما لا يبقى وجوب أو لزوم.

6. الهجوم على الفكر الديني بلا دليل بل لمجرد المشاعر السلبية تجاهه.

من حق أي إنسان أن يفكر ويتساءل ويكون قناعاته الخاصة سواء أصاب فيها أم أخطأ، لكن كيل الاتهامات الجزافية، والانحدار في توصيف أفكار ورموز الآخرين إلى مستوى الانتهاك والتوهين فليس حقاً لأحد، وإنما يفضح خبايا ودفائن صاحبها.

يتذرع الملحدون في عرضهم لأفكارهم بمفاهيم مثل حق الحرية الفكرية، وحق حرية الانتقاد، واحترام العقل وما شابه ذلك، وتحت ستار هذه العناوين ينشرون كراهيتهم وعداءهم للدين، ويشنعون على الفكر الديني من خلال ازدراءهم لرموزه وإهانة الاعتقادات الأصيلة فيه بأدنى سبب بعيداً عن العلمية والموضوعية.

هذا عبد الله القصيمي يصف الأنبياء عليهم السلام -والعياذ بالله- بالكذب فيقول: «إن الأنبياء لم يبعثوا إلى الناس والوحي لم ينزل عليهم لأنهم أفضل من الكائنات الأخرى؛ بل لأنهم أجراً وأقدر على الادعاء والكذب باسم الكائنات البعيدة الصامته» (القصيمي، أيها العقل من رآك، 12). وفي موضع آخر يصف العبادات التي تقرب العباد من الله، سبحانه وتعالى، بوصف قبيح، فيقول: «فالعباد استفراغ روحي وعملية جنسية تؤديها الروح لحسابها لا لحساب الآلهة» (القصيمي، أيها العقل من رآك، 18).

وهذا إسماعيل أدهم يتهم النبي الأكرم، صلى الله عليه وآله، أيضاً بالكذب -والعياذ بالله- فيقول: «ولقد تعذر على ابن عباس تمثيل الأساطير الإسرائيلية فقد استعصت على الرسول من قبل ولم يتمكن من هضمها وتمثيلها كما تبدو في تضاعيف القرآن» (أدهم، من مصادر التاريخ الإسلامي، 26).

وهذا محمد المزوغي يصف الله، جل جلاله، بكلمات بعيدة عن الأدب والاحترام عند كلامه عن المؤمنين زوراً وكذباً، فيقول: «ثم إن المسلمين... يتصورون الله على أنه طاغية يعمل كل ما يروق له بما في ذلك الخدعة والكذب والمكر» (المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 149). وفي موضع آخر: «لقد اصطنعوا لهذا الحاكم المطلق والذي هو إله لا أخلاقي ومجرد طاغية متفنت في القسوة جيوشاً من الأعداء» (المزوغي، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، 378). وإن المرء ليعجب من جرأتهم في هذا المجال، ويزداد عجباً من لبوسهم بعد ذلك لباس الظلام في نقاش المسلمين لهم، وما عشت أراك الدهر عجباً.

■ ثانيًا: دوافع الإلحاد:

ينبغي الإشارة بدايةً إلى أن الحديث عن سمات التفكير الإلحاديّ في العالم العربيّ لا يقتضي بحال وجود نمط تفكيري واحد عند جميع الملحدين العرب أو حتى عند أغلبهم، وليس هذا مقصوداً لنا بل المقصود هو وجود مشتركات في هذه الأنماط التفكيرية المختلفة أطلقنا عليها سمات التفكير الإلحاديّ، وأما الأنماط التفكيرية فهي تتناغم مع دوافع الإلحاد التي تختلف بين شخص وآخر.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الكلام عن سمات التفكير الإلحاديّ كان بملاحظة الرموز والمنظرين لهذا التفكير، لكن الكلام عن دوافع الإلحاد لا يختص بهؤلاء بل يعم كل من ابتلي بهذا المرض. إنّ الدوافع إلى الإلحاد عديدة ومتكاثرة، وتتنوع بين دوافع شخصية ونفسية وثقافية وعلمية وغيرها، بل قد ترتبط بعض الدوافع بجغرافيا معينة أو بانتماء معين، وما يهمننا في هذه الدراسة التركيز على الدوافع الأساسية للإلحاد في عالمنا العربيّ، ولا يمكن حصرها فنذكر أهمها ودليلنا في ذلك كله الوجدان والتحليل:

1. الأمراض النفسية.

هناك العديد من الأمراض النفسية والأخلاق الذميمة التي تودّي بالإنسان إلى سلوك طريق الإلحاد، وواقعا العربيّ المعاصر يعج بها، فهناك من يلحد رغبة منه في كسر العادة ومخالفة الجو العام، فيلجأ إلى الإلحاد لا بعنوانه، بل لأنه يمثل المخالفة التي يبتغيها، وهناك من يلحد حباً في الظهور، ويعمد إلى تحقيق ذلك من خلال إعلان إلحاده، فالإلحاد ليس عقيدة له، بل وسيلة ليحقق رغبة مرضية في أن يكون مورد اهتمام مهما كان سبب ذلك، وهناك من يلحد نتيجة حالة سيزيفية يعيشها، فيدفعه إحساسه باللاجدوى إلى الإلحاد. وغير ذلك من الأمراض النفسية التي تشكّل أساساً في توجه البعض إلى الإلحاد كالمزاجية والنجسية وغيرها.

2. السخط على الواقع الذي يعيشه الملحده ورفضه.

قد يعايش الإنسان ظروف صعبة في نشأته أو في أطوار نموه الاجتماعيّ والثقافيّ والفكريّ، وهذا قد يؤثر على البعض تأثيراً عميقاً يدعوهم إلى السخط على الواقع الذي احتواهم، والنظر

إليه نظرة ماقته ترفض كل ما ينتمي إليه؛ ولذا فهناك من يلحد في العالم العربي كحالة من التمرد على القيم والثوابت التي يعيشها المجتمع العربي، لأنّها قيم وثوابت تنتمي إلى المجتمع الذي يرفضه ويسخط عليه.

هذا الكلام ليس بعيداً عن عبد الله القصيمي، اسمعه يقول عن العرب ساخراً: «يا قومي يا أبناء العروبة يا آباء كل مجد وعبقريّة أعترز إليكم يا قومي يا مجدي أعترز إليكم لأنكم قد فسرتمكم بأنكم كائنات مصوّتة لا متكلمة» (القصيمي، العرب ظاهرة صوتية، 281). إنّ السخط والرفض بل الاحتقار يفيض من عبارته هذه التي تعكس تمام مضمون كتابه الذي سماه «العرب ظاهرة صوتية».

إنّ الواقع العربيّ في القرن الأخير -للأسف- لا يدعو إلى الفخر والاعتزاز، بل يزرع بالمثالب والنكسات على عدة أصعدة، وهذا ما دفع بالبعض إلى رفض كل ما ينتمي إليه ضمن رؤيته ونظرة.

3. اختراق حالة التبليغ الدينيّ من قبل بعض الجهلة والمعرضين.

إنّ عرض الفكر الدينيّ بل أيّ فكر كان وإيصاله إلى من يتغيه لا بد أن يقوم به أهله ممن يمتلكونه صحيحاً وموثوقاً، لكن التبليغ الدينيّ في الآونة الأخيرة ابتلي ببعض الجهلة والمعرضين الذين تنطعوا لهذه المهمّة الصعبة والحساسة مستغلين المساحة الواسعة التي قدّمها لهم وسائل التواصل الاجتماعيّ، فأغربوا وأعجبوا، وقدّموا صورة ممسوخة عن الدين ملأى بالخرافة والجهل والتعصب.

بسبب هذه الصورة المزيفة عن جهل أو عن عمد جنح البعض ممن يتساهلون في أخذ المعارف واكتسابها عن أيّ أحد إلى رفض الدين والميل إلى الإلحاد، فالحاد هؤلاء لم يكن منهم نتيجة قناعة فكرية بل نتيجة رفضهم الدين طبقاً للصورة المشوّهة التي قدّمت لهم عبر الجهلة والمعرضين.

ولا يمكن إغفال تقصير المؤسسة الدينيّة في هذا الأمر، فإنّ ضعف الحالة التبليغيّة للمؤسسة الدينيّة عامّة أتاح الفرصة لهؤلاء -على قلتهم- أن يعتلوا المنابر، ويملؤوا الفضاء المجازي نعيماً وكذباً.

4. الجهل وقلة المطالعة.

إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ بالخصوص منظومة معرفيَّة وسلوكيَّة شاملة لكل مناحي الحياة وعلى امتداد البسيطة وإلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28). والإحاطة معرفيًّا بالدِّين الإسلاميِّ في كل جوانبه ومستوياته ليستُ أمراً يقدر عليه كل أحد، ومع سرعة تطور الحياة البشريَّة في الآونة الأخيرة، وضغط الواقع العربيِّ بما يكتنزه من مشاكل اجتماعيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة وغيرها، أصبح الغالب من الناس لا يعرف عن الدِّين الإسلاميِّ إلاَّ بعض الأمور الشكليَّة التقليديَّة؛ لذلك فإنه عندما تصب الإشكالات الإلحاديَّة بغزارة على البسطاء معرفيًّا لن يكون لديهم القدرة على ردها وعدم التأثير بها، حتى لو كانت مردودة في نفسها؛ نتيجة الفقر المعرفيِّ الذي يضعف نظام المناعة الفكري عندهم، بل إن الضعف المعرفيِّ لهؤلاء يقود بعض أطراف الإلحاد إلى الكذب في سبيل ترويح فكرهم، فيخترون إحصائيات ويتدعون دراسات لا وجود لها، حتى أن البعض منهم يقدم نسباً لأعداد الملحدين في العالم العربيِّ تفوق الواقع بمئات إن لم يكن بالآلاف المرات، كل ذلك استغلالاً لجهل البعض وعدم اطلاعهم الكافي، ولو أن هؤلاء رفعوا حالة الجهل عندهم من خلال القراءة والاطلاع على الكتب المعتمدة، أو من خلال الرجوع إلى أهل العلم الموثوقين لما كان لهذه الإشكالات والتهويلات أيُّ أثر عليهم سوى فضح تهاافت الفكر الإلحاديِّ. إن رفع الجهل عند الناس وحملهم على المطالعة مهمة جليلة تقع على عاتق العلماء، ولا بد من القيام بها حتى يغلقوا باباً واسعاً أمام ناشري ومروجي الإلحاد الذين يعمدون إلى الكذب والتهويل حتى يحققوا غاياتهم.

5. الانبهار بالغرب التكنولوجيِّ.

إنَّ التقدُّم التكنولوجيِّ الذي حققه الغرب في القرنين المنصرمين أثر على مدى واسع في مجتمعاتنا العربيَّة، وجعلها تقبل بشكل كبير كل ما يأتي من الغرب، يقول عبد الرحمن الميداني: «لقد كانت هذه الفتنة بالحضارة الأوروبية الماديَّة وبما رافقها من انبهار بمنجزات هذه الحضارة مناحاً ملائماً جداً لزحف كل ما لدى الغربيين من سلوك وأفكار وعادات ومذاهب فكريَّة حديثة مناقضة لمبادئ الإسلام ومفاهيمه وشرائعه وأخلاقه ونظمه وسائر تعاليمه الحقَّة» (الميداني،

كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، 100).

إنَّ هذا التقدم التكنولوجي لم يصنعه الإسلام؛ لذا فقد استقرَّ عميقاً في أذهان كثير من الناس فكرة أنَّ الغرب لم يكن ليتقدَّم حضارياً كما هو اليوم لولا أنَّه عزل الدِّينَ وابتعد عنه في سيره الحضاريِّ.

وهذه الفكرة بعيدة عن الصواب من غير جهة، فأولاً: الغرب ليس متقدِّماً حضارياً، وثانياً: إنَّ كان هناك من تقدم فليس السبب هو عزل الدِّين. وحتى لا يرمينا أحد بالتشدد والتحيُّز وعدم الموضوعية، فيقول: إنَّ قولكم هذا هو إنكار للواضحات، نبين ما غاب عنه بيان مقتضب: أولاً: الغرب ليس متقدِّماً حضارياً بل متقدِّمٌ تكنولوجياً ومادياً، والفرق كبير بين الأمرين. إنَّ الغرب الذي ينحدر فيه الإنسان إلى مستوى السِّلعة، وترتقي فيه بعض الحيوانات إلى مصاف الإنسان بل إلى مستوى أعلى منه لا يمكن أن يكون حضارياً، واللييب من الإشارة يفهم. ثانياً: إن الدِّين والالتزام بتعاليمه لا يمنع أبداً من التقدُّم التكنولوجي والماديِّ، وبعض الدول المسلمة المعاصرة والمتقدِّمة تكنولوجياً بسرعة كبيرة خير شاهد على ذلك، فليس هناك ارتباط بين الالتزام بالدِّين وعدم التطوُّر التكنولوجي والماديِّ، بل العكس هو الصحيح، فإن الدِّين يحض على العلم وعلى تطوير الذات والمجتمع.

ولا بدَّ من الالتفات إلى قضية مهمَّة في هذا المقام هي أنَّ الحضارة المادية أتت بمظاهر الترف والرفاهية الواسعة وقدمت ألوان اللذائذ والاستمتاعات الجاذبة للعنصر الشبابيِّ، وفي المقابل فإنَّ الدِّين يوطِّئ هذه الأمور ويوجِّهها في مسار معتدل ومنضبط؛ لذلك قد يرفض البعض الدِّين لأنَّه يمثل قيِّداً أمام الانغماس في مظاهر الحضارة المادية التي يتطلَّع إليها. من هنا فرفض الدِّين عند البعض تأثراً بالغرب الحضاريِّ المزعوم ليس نتيجة تأثر فكريٍّ أو علميٍّ في الغالب، وإنما تماشياً مع سعيهم لإشباع رغباتهم وشهواتهم.

الخاتمة:

خلق الله، سبحانه وتعالى، الإنسان وزوَّده بما يحتاجه من فطرة وعقل ليفكر ويعرف مصدر الوجود، وأرسل الأنبياء، عليهم السلام، لبيِّنوا السبيل إليه، وليقدِّموا شريعة الله الناظمة للبشر

والموصلة لهم إلى غاية ما خلقوا لأجله، لكن يبقى الضلال عن ذلك واعتناق الإلحاد فكراً له أسبابه ودوافعه، وقد كثرت هذه الأسباب والدوافع في الآونة الأخيرة نتيجة الثورة التكنولوجية والتطور المادي الذي وصلت إليه البشرية، وشرع رواد الضلال والإلحاد في الدعوة إلى ضلالهم تحت عناوين العلميّة والحريّة الفكرية وما شابه ذلك، فصار لزاماً على أهل الحق أن يدققوا في ظاهرة الإلحاد الخطيرة ويحللوها، وهذه الدراسة اندرجت في هذا السياق ووصلت إلى النتائج الآتية:

- 1 - الإلحاد نسق فكري خاطئ واعتقاد باطل، وظاهرة نشره وانتشاره في العالم العربيّ خطيرة وتهدم مقومات المجتمع العربيّ؛ لذا لا بد من التصديّ له فكراً وظاهرةً.
- 2 - للتفكير الإلحاديّ سمات مشتركة يمكن التعرف عليه من خلالها، أهمّها:
 - اعتماد الاستحسان طريفاً إلى المعرفة.
 - القراءة الناقصة للأديان وكثرة الدعاوي الباطلة.
 - الانطلاق من تجارب ومعاناة شخصيّة في تنظيم النسق التفكيريّ وتعميمه.
 - التسرع في المواقف والوصول إلى النتائج.
 - عدم الدقة والعمق في المطالب العلميّة.
 - الهجوم على الفكر الدينيّ بلا دليل بل لمجرد المشاعر السلبية تجاهه.
- 3 - الأنماط التفكيريّة للملحدين متنوعة وتتسق مع الدوافع التي أودت بأصحابها إلى الإلحاد.
- 4 - دوافع الإلحاد تختلف بين دوافع ذاتية ونفسية وعلميّة ودينية وغيرها، وأهمّها:
 - الأمراض النفسيّة.
 - السخط على الواقع الذي يعيشه الملحد ورفضه.
 - اختراق حالة التبليغ الدينيّ من قبل بعض الجهلة والمغرضين.
 - الجهل وقلة المطالعة.
 - الانبهار بالغرب التكنولوجيّ.

هذا، وتوصي هذه الدراسة بتكثيف العمل على بيان التهافت في الفكر الإلحاديّ وإظهار الضعف العلميّ الذي يجعلهم يحكمون في قضية خطيرة جداً مثل قضية الخالق العظيم بحكم سقيم كل الأدلة على خلافه، ومن جهة أخرى توصي بتدعيم نظام المناعة في المجتمعات العربية

النتائج

من خلال رفع مستوى الاهتمام بالدين وتقديمه للجميع - كما هو في واقعه وحقيقته - بنينا معرفياً وقيماً لا نظير له في التاج الإنساني.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ.
- أبو الحسين، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- أدهم، إسماعيل، لماذا أنا ملحدٌ، مطبعة التعاون، الإسكندرية، 1937م.
- أدهم، إسماعيل، من مصادر التاريخ الإسلامي (فصل من كتاب حياة محمد ونشأة الإسلام)، ط 1، مطبعة صلاح الدين الكبرى.
- الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، 4، 1990م.
- خسروپناه، عبد الحسين، الكلام الإسلامي المعاصر، ترجمة: محمد حسين الواسطي وأسعد الكعبي، سلسلة كنوز المعرفة، مكتبة الكويت للبحث العلمي والفكر الأصيل.
- الشيرازي، آية الله ناصر مكارم، الاتصال بالأرواح بين الحقيقة والخيال، ترجمة عبد الرحيم حمراني، نشر مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم، 1424هـ.
- القصيمي، عبد الله، الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات، 1972م.
- القصيمي، عبد الله، العرب ظاهرة صوتية، مطابع شركة مونمارتر، باريس، 1977م.
- القصيمي، عبد الله، مؤسسة الانتشار العربي Bandar-alsahafi@hotmail.com
- المزوغني، محمد، تحقيق ما للإلحاد من مقولة، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، 2014م.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، دمشق، ط 3، 1998م.
- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، ط 5، 2007م.